عن الدنكا-نقوك والاستقرار والترحال
(بين عمر القراي وعبدالله علي إبراهيم)

نشرت جريدة الأحداث وسودانايل مؤخرا للأستاذ عبدالله علي إبراهيم مقالا بعنوان "القراي الذي لا يقرأ"، وهو تعقيب على خلاف بينه وبين الأستاذ عمر القراي، بدأ بعد أن كتب الأخير مقالات حول موضوع استفتاء أبيي، لم يعجب محتواها عبدالله فرد عليها ضمن سلسلة مقالاته "المسيرية حقها في رجليها". بعد رد القراي عليه، قام عبدالله في مقال "القراي الذي لا يقرأ" بالتركيز على أن الدنكا-نقوك رحالة، كما المسيرية، وهو بذلك يريد أن يدحض ما اعتمد عليه القراي، من مصادر ذكرها، من أن المسيرية عموما رعاة رحالة، في أبيي، في حين أن الدنكا-نقوك مزارعون مستقرون. قام عبدالله بالعودة إلى مرجع أراد به أن يؤكد صحة معلومته هذه وخطل معلومة القراي، إذ قال، "ويؤسفني أن يضطرني القراي إلى ما لم يأخذ نفسه بالشدة لطلبه وهو الكتاب. فقد نظرت في كتاب صدر في 1997 عن معهد جامعة هارفارد العالمي للتنمية عنوانه "ما بين المستنقعات ومكان صلب" لمؤلفيه ديفيد كول وريتشارد هنتيقتون. والكتاب يلخص تجربة ذلك المعهد في تنمية ابيي (1979-1981). ووصف الكتاب مراحيل دينكا نقوك آناء موسمي الشتاء الجاف والصيف الممطر. فموارد المياه عندهم تنضب في الشتاء فيرحل الرعاة بالقطعان جنوباً عابرين بحر العرب-كير. وربما بلغوا النوير في السنين العجاف. ويقوم على القطعان شباب الدينكا في عمر الثلاثين ويشكلون 65% من المرحال تساعدهم شابات في سن العشرين يشكلن 25% والبقية أطفال وكبار السن. وهذا أيضاً وقت قدوم المسيرية من الشمال إلى أبيي في مرحال يبلغون به بحر العرب كذلكً. وفي هذه الفترة تخلو قرى الدينكا من سكانها لاستحالة الزراعة فيتفرقون. فمنهم من يتجه للشمال بحثاً عن عمل يزيد به دخله. ثم يحل موسم الخريف وهو وقت عودة قطعان النقوك شمالاً حتى أرض القوز شمالي أبيي بحثاً عن أرض جافة نسبياً لمعسكرات البقر." هذا هو دليل عبدالله على صحة كلامه.

عبدالله يرى أن "كلا الجماعتين رعويتان بعناية متفاوتة بالزراعة"، كما قال. لا نريد الآن الخلاف مع عبدالله حول نمط عيش المسيرية عموما، ولكن ننظر للدنكا-نقوك. بين يدينا الآن كتاب كتبه الدكتور فرانسس دينق عن أهله. الكتاب بعنوان "دنكا السودان"، صدر عام 1972، ضمن سلسلة كتب بعنوان "دراسات حالة في الأنثروبولوجيا الثقافية"، قام بتحريرها جورج ولويس سبلندر من جامعة ستانفورد. يقول فرانسس في الصفحة 107 من الكتاب، "التأكيد المعتاد على أن الدنكا يعيشون حياة شبه بدوية [رحالة] صحيح فقط في معنى أن الشباب يصطحبون الماشية إلى معسكرات مؤقتة، بحثا عن مراع أفضل؛ عدا ذلك فإن القرى دائمة في مكانها، وهي دائما تكون مسكونة بالرجال والنساء الكبار وأيضا بالأصغر منهم عندما لا يكونون خارج القرية مع مجموعات المواشي من أجل المراعي البعيدة." (ترجمة الكاتب). جدير بالذكر أن "الرجال والنساء الكبار" في وصف فرانسس إنما هم الذين تجاوزوا مرحلة الشباب، حيث أنهم تزوجوا وأنجبوا، وليسوا فقط الشيوخ والعجزة، فمجتمعات الدنكا تنقسم الأدوار الاجتماعية والاقتصادية فيها حسب الفئات العمرية، كما أفادنا فرانسس في كتابه. يؤكد فرانسس أيضا أن الزراعة من أنشطة الدنكا الرئيسية، وعادة ما تكون مسؤولية الرجال والنساء الكبار، أما الشباب فيميلون لرحلات الرعي وحياة معسكرات الماشية حيث يستمتعون بوفير اللبن واللحم ويقضون لياليهم في أنس ومرح، لكن لا تخلو هذه المعسكرات وحياتها من المشاق والتحديات التي يتصدى لها هؤلاء الشباب أيضا.

من المتفق عليه عموما، في دراسة تاريخ التطور الاقتصادي للشعوب، أن مرحلة تدجين الحيوانات سابقة عموما لمرحلة الزراعة، لهذا فإن من النادر جدا أن نجد شعبا يمارس الزراعة بدون أن يمارس أيضا تربية الدواجن (بل إن النشاط الزراعي نفسه، في الاصطلاح الاقتصادي المعاصر، معروف أنه يعني ضمنيا تربية الدواجن أيضا). الدنكا ببساطة أحد هذه الشعوب التي استقرت ومارست الزراعة، ولكنها في نفس الوقت تمارس رعي الماشية الذي يشكل جزء مهما من اقتصادها. ممارسة الرعي هنا، ومعسكرات الماشية المذكورة أعلاه، لا علاقة لها بمدى استقرار الدنكا في أراض بعينها، ولا يعني أن الدنكا رحالة، كما القبائل الرحالة التي تنتقل بكليتها من مكان لآخر. هذا ويضيف فرانسس أن تقسيم حقوق الأراضي بين أفراد القبيلة نشاط مهم، وموكل إلى الشيوخ في مجتمع الدنكا.

أما عن نشاط الدنكا-نقوك الزراعي فإن فرانسس يستوفيه في هذا الكتاب وصفا (صفحة 108)، فأرض الدنكا-نقوك خصبة، ومن محاصيلهم الذرة (المحصول الأساسي)، والذرة الشامية والفول السوداني، والسمسم والفول، والبامية والتبغ. نشاط الدنكا-نقوك الزراعي يتضمن تهيئة الأرض في موسم الجفاف، وزرع البذور في بداية الموسم الممطر، والحش مرتين في السنة على أقل تقدير، وحماية المحاصيل من الطيور والحيوانات، وعملية الحصاد. الأنشطة الزراعية بطبيعتها أنشطة موسمية؛ يقول فرانسس دينق، "هذه الأنشطة تتطلب عمالة شاقة، الرجال والنساء يستيقظون باكرا ليذهبوا للمزارع - عادة مسافة بعيدة - ويرجعون فقط في المساء أو أحيانا ينامون في البيوت القريبة" (صفحة 108). تتخلل ساعات العمل أغاني الدنكا المتناغمة مع صوت آلات الزراعة. أراضي نفوذ الدنكا تتضمن أيضا مناطق صيد السمك والحيوانات البرية.

ما يذكره عبدالله علي إبراهيم، من مرجعه الذي ذكره، بأن في فترة الجفاف "تخلو قرى الدينكا من سكانها" هو في الواقع تأكيد على حياة الدنكا الاستقرارية (القرى)، أما كونها تكاد "تخلو من سكانها" فهذه لازمة جديدة من لوازم سياسة "زراعة الجوع" - كما وصفها الدكتور تيسير محمد علي - التي قادتها الحكومات السودانية الفاشلة في تخطيط وإدارة التنمية الزراعية، والتي انتهت بفقر شديد في المناطق الزراعية بحيث سعى أبناؤها لتحصيل الرزق عبر أنشطة أخرى، خصوصا في مواسم الجفاف. هذا كما أن مرجع عبدالله متأخر زمنيا مقارنة بكتاب فرانسس، وأقل مصداقية في الوصف والتحليل منه. نضيف ملاحظة أن عبدالله أراد أن يقول إن هذه القرى ليست دائمة، لأنها "تخلو من السكان" في موسم الجفاف، وأنا شخصيا أستنكر هذا الوصف، وأحسب أن عبدالله تصرف فيه ليدعم حجته، أو أن مرجعه لم يكن دقيقا في هذه النقطة، فالقرى التي "تخلو" تماما من سكانها ليست قرى، إذ أن ممتلكاتهم تحتاج على الأقل من يحرسها، إضافة لبقاء الشيوخ فيها وغير القادرين جسديا على مشاق الترحال، كما لا بد أن يكون هناك نشاط اقتصادي مستقر في القرية على مدار السنة، لتلبية ضرورات حيواتها على أقل تقدير.

هذا بعض ما ورد في كتاب فرانسس، وفيه تفاصيل أخرى. الأكثر إشكالا في كلام عبدالله أنه يستنكر على القراي أن يأخذ معلوماته من نفر من المسيرية مباشرة، إذ يقول: "وبدلاً من أن يرجع لكتاب منير في الشأن عاد ليقول بأنه تحاور مع نفر من المسيرية ولم يعترضوا على وصفهم بالسيارة ولا على وصف دينكا نقوك بالمستقرين. وإذا لم تكن هذه "سلطة البياض وعقل المشافهة" التي كرهها حيدر إبراهيم فما تكون!"

هل يعقل أن يظن شخص عالم، وقارئ موضوعي، أن "كتابا منيرا" كتبه أمريكان عن مشروع تنمية قاموا به في أبيي قبل ثلاثين سنة، أكثر مصداقية من أهل أبيي أنفسهم؟ إن كان الأستاذ القراي قد أقام ورش عمل، كما قال، حضرها مسيرية وشاركوا فيها، ولم يعترضوا على وصفهم بالرحالة مقارنة بالدنكا-نقوك المستقرين، فهذا ببساطة يعتبر "مادة خام" للمعلومات، وهو أكثر مصداقية بكثير من مرجع عبدالله الصادر عن جامعة هارفارد. إن عبدالله، كأكاديمي ممارس، لا بد يعرف من أين تأتي المعلومات الخام، وأن الباحث الذي يستقي معلوماته من الناس موضوع الدراسة مباشرة، عن طريق منهج بحثي، كإقامة ورش العمل معهم، تصبح لديه معلومات أهم عنده من أي كتاب صدر قبل هذا البحث. إن عبارة "سلطة البياض وعقل المشافهة" ليست واضحة في معناها في سياق عبدالله، لكن الواضح أن عبدالله افتقد هنا لموازين المعلومة المصدوقة، وظن أن "قراءة الكتب" أوفى من الحوار مع الناس، أهل القضية، مباشرة، وهذه لعمري كبوة منهجية كبيرة. إن "مشافهة" كهذه أكبر قيمة بكثير، لدى الباحث المنهجي، من "الكتاب المنير" الذي استنجد به عبدالله وما أنجده.

خلاصتنا هي أن عبدالله علي إبراهيم لم يكن موفقا في وصفه للدنكا-نقوك بالرحالة كما المسيرية، وبدل أن يرجع عنه ذهب ليأتي بمرجع لا يدعم ادعاءه في الواقع، ومصداقيته الوصفية ضعيفة، مقارنة بغيره مما ذكرنا هنا، ولا يبدو أن عبدالله عموما قرأه إلا بعين المنتهز، لا القارئ الموضوعي.

وهناك مسألة أخرى، هي أن عبدالله عاد وزايد على اتهامه للقراي بأنه وصف المسيرية بالجبن (وقد أنكر القراي ذلك). ليؤكد عبدالله اتهامه هذا، أورد نص القراي نفسه، الذي يقول، "ولقد تكونت على يد حكومة السيد الصادق المهدي مليشيات عرفت ب (المراحيل) كانت تهاجم أعضاء قبيلة دينكا-نقوك من الكبار في السن والنساء والاطفال، وتحرق قراهم وتأخذ بعضهم كعبيد، حين يكون الشبان في صفوف الجيش الشعبي لتحرير السودان يقاتلون في مواقع مختلفة في الجنوب". بعد ذلك قال عبدالله، "لربما لم يصم كل المسيرية بالجبن. وليس بالطبع من جماعة تهاجم أخرى عن بكرة أبيها. ولكن من المؤكد أن القراي وصم قطاع الفرسان منهم بالجبن". إن هذا لباب من أبواب لي أعناق النصوص عجيب! إن عبدالله، بإيراده نص القراي كاملا، إنما يفضح نفسه بنفسه، فإما أنه لا يقرأ جيدا أو أنه يتصور أن له ملكة من ملكات سحرة فرعون، الذين يرمون العصي ثم يصورون للناس، بسحرهم، أنها تسعى. عبارة القراي واضحة جدا ومحددة في هذه النقطة، وعبدالله يصر على تقويلها ما يهواه. هل يستطيع عبدالله أن ينفي أن حكومة الصادق المهدي سلحت مليشيات من أبناء المسيرية، اشتهرت باسم المراحيل، وأن هذه المليشيات فعلت ما فعلت في دنكا-نقوك؟ إن كان يستطيع أن ينفي ذلك بالمعلومة المضادة الموثقة فليفعل، أما ما يفعل فيه الآن فمثير للشفقة. هذه المعلومة موثقة في مصادر موثوقة، ولم يأت بها القراي من خياله، ومعظم أبناء المسيرية، حسبما رأيت، لا ينكرونها، إنما يؤكدون أن ذلك التسليح لم يشملهم جميعا، بل اختص مجموعات منهم رضت أن تتحالف مع الحكومة المركزية ذلك الحلف غير الكريم. إن كانت هذه المليشيات جبانة - وهي عندنا كذلك - فهذا لا يعني أن المسيرية أو قطاع فرسانها عموما جبناء، وفي كل قبيلة هناك الشرفاء كما هناك أراذل الناس. على عبدالله أن يواجه الحقائق التاريخية والموثقة في مستواها، بدل هذا الحشف وسوء الكيل.

قصي همرور
(نشرته أجراس الحرية في الأربعاء 29 ديسمبر 2010)